

# لماذا ألّفوا؟ 1 - 3

## وراء تأليف كل كتاب أسباب

محمد بن عبدالله الفريح - كاتب ومفكر
مدير إدارة النشر والترجمة شركة العبيكان للتعليم
malfriah@obeikan.com.sa

يختلج في نفسي منذ زمن ليس بالقريب سؤال يلحّ علي إلحاحاً شديداً عن سبب قيام مؤلفي الكتب بكتابتهاوتدوينها، ولماذا يبذلون في ذلك الغالي والنفيس من المال والجهد والوقت والعناء والسهر، ومن ثم وقعت عيناي على كتب ذكر مؤلفوها أسباب الشروع في كتابتها في مقدمة كتبهم، فأخذت ذلك مدخلاً لجمع ما يقع تحت يدي من أسباب تأليف الكتب بحسب رواية مؤلفيها أو ناقليها، وتباينت الأسباب عن جمعها في مناح عدة منها العقديّ والفكريوالهوس بالجديد والتحدي وتصيحح مفهوم خاطئ وفكرة يدونها صاحبها خوفاً عليها من الضياع والنسيان، منها ما هو مضحك جداً، ومنها ما هو مبك، ولعلنا نسرد في هذه العجالة بعض عناوين الكتب وأسباب تأليفها، وسوف ننوع في موضوعات الكتب، تجنباً لملل القارئ وسوف نسردها على ثلاث حلقات متتابعة بإذن اللّه، وقد حدد الكاتب جهاد الخنيزي، خطوات تأليف كتاب في سبع مراحل، في حديث عن تجربته في الكتابة وخطوات صنع الكتاب، وقال: إن هذه المراحل مهمة جدّا في تجربة الكاتب، لافتاً إلى أن جميع الكتّاب الشباب الذين يبحثون عن فرصة للكتابة ينبغي أن يمروا بهذه المراحل السبع، موضحاً أن المراحل الأولى تبدأ عندما يشعر المرء بوجود ضرورة أن يقول شيئًا للآخرين، فتبدأ الخطوط الأولى أو الكلمات الأولى لصناعة الكاتب، ومن ثم يبدأ الشعور بقلق الجهل ورغبة في التخلص من هذاالقلق، ثم التأملات الأولية. وأضاف أن المرحلة الثالثة تتمثل في بداية الكتابة الأولى البسيطة والساذجة، التي تسمى بالمخطوطات الأولى، فيما يمكن تسمية الخطوة الرابعة وهي الأهم، بـ التأملات الثانية يكون التأمل فيها جدلًا ذهنيًا «جدل المعرفة» بين الكاتب والواقع والتناقضات الموجودة فيه، إلى أن تأتي مرحلة يكتب فيها المؤلف، ويقول وينطق، مشددًا على أن هذه المرحلة «حرجة»، وتصنع الكاتب في أن يقول، وهنا يبدأ ظهور الكاتب الأولي، وإذا أخذ القرار، وقرر أن يكتب يدخل في المرحلة اللاحقة، وهي التأملات العميقة، التي تنتج رأي الكاتب، ومعرفته بالأسباب والنتائج. وتابع: هذه في النهاية الأطر التي تشكل المرحلة السابعة، وهي وجود الكتابين أيدي القراء.

ونبدأ باستعراض سريع لبعض المؤلفات وأسباب وضعها:

### كتاب صحيح البخاري:

قال أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه اللّه: كنا عند إسحاق بنراهوية، فقال: لو جمعتم كتابًامختصرًا لصحيح سنة الرسول صلى اللّه عليه وسلم، قال:فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع الجامع الصحيح، فبدأ منذ ذلك بجمع الأحاديث الواردة عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

كتاب التدمرية

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه فقد سألني من تعينت إجابتهم أن أكتب لهم مضمون ماسمعوه مني في بعض المجالس، من الكلام في التوحيد والصفات، وفي الشرع والقدر، لمسيس الحاجة إلى تحقيق هذين الأصلين، وكثرة الاضطراب فيهما، وقيل أيضًا إن السؤال كان من بعض أهل تدمر.

### كتاب (الواسطية):

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه تعالى في كتابه الفتاوى: كان سبب كتابتها - أي الواسطية - أنه قدم عليّ من أرض واسط بعض قضاة نواحيها - شيخ يقال له رضي الدين الواسطي من أصحاب الشافعي – قدم علينا حاجًّا وكان من أهل الخير والدين، وشكا ما الناس فيه بتلك البلاد وفي دولة التترمن غلبة الجهل والظلم ودروس الدين والعلم، وسألني أن أكتب له عقيدة تكون له عمدة له ولأهل بيته، فاستعفيت من ذلك، وقلت قد كتب الناس عقائد متعددة، فخذ بعض عقائد أئمة السنة، فألح عليّ في السؤال، وقال: ما أحب إلا عقيدة تكتبها أنت، فكتبت له هذه العقيدة، وأنا قاعد بعد العصر، وقد انتشرت بها نسخ كثيرة، في مصر والعراق، وغيرهما.

### كتاب (كليلة ودمنة):

كتاب ألفه الفيلسوف الهندي(بيدبا) للملك دبشليم، وفي أوائل القرن السادس الميلادي أرسل الملك الفارسي محب الحكمة كسرى أنوشروان الطبيب الفارسي (برذويه) ليقوم بنقل الكتاب من الهندية إلى الفهلوية، وهي الفارسية القديمة، ثم في منتصف القرن الثاني الهجري نقله ابن المقفع إلى العربية. ويشاء اللّه أن تكتسب النسخة العربية أهميه عالمية بعد فقد الأصل الهندي واختفاء الترجمة الفارسية، وكأنما حملت النسخة العربية مسؤولية الحفاظ على هذا الكتاب وتقديمه إلى طلاب المعرفة ومتذوقي الفن القصصي، وعلماء الأخلاق والسياسة عبر العصور، وتمر السنون فإذا الناس لا يذكرون إلا ابن المقفع ناسبين إليه كليلة ودمنة، والحق أنه إذا كان هذا الكتاب يحمل ملامح ثلاث حضارات هي الهندية والفارسية والعربية... فإن بصمات ابن المقفع تبدو واضحة جلية فيه، وتجعله مثلاً يحتذى تتراءى لنا من خلاله مدرسة ابن المقفع وطريقته المبدعة في النثر الفني.

وتبدأ قصة تأليف الكتاب بغزو الإسكندر بلاد الهند وثورة الشعب عليه، التي أدت من ثم إلى تولي الملك (دبشليم) العرش، وقد كان مغروراً ظالماً، ما دفع الفيلسوف ( بيدبا) إلى نصحه، فسجنه، لكنه ندم فيما بعد، فأطلقه، وقربه إليه، وجعله وزيراً له، يستشيره في كل الأمور، وقد طلب منه أن يضع خبرته ونصائحه في كتاب، فكان هذا الكتاب الذي يرمي إلى إصلاح الأخلاق وتهذيب العقول، وكل ذلك على لسان كليلة ودمنة وهما حيوانان من الفصيلة الكلبية أصغر حجماً من الذئب، والحديث على لسان الحيوانات ليس إلا من قبيل الأدب الرمزي.

### كتاب (الجواب الكافي لمن سأل الدواء الشافي):

سئل الإمام العالم العلامة الحافظ الناقد شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن الشيخ الصالح أبي بكر الذي عرف "بابن قيم الجوزية"

رحمه اللّه: ما تقول العلماء أئمة الدين رضي اللّه عنهم أجمعين: في رجل ابتلي ببلية، وعلم أنها إن استمرت به أفسدت دنياه وآخرته، وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل الطرق، فما يزداد إلا توقداً وشدة فما الحيلة في دفعها؟ وما الطريق إلى كشفها؟ فرحم اللّه من أعان مبتلى، واللّه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، أفتونا مأجورين، فجلس فيما بين صلاة العصر إلى صلاة المغرب مستعرضاً ما قد يطرأ على القلب من أنواع الشهوات والفتن والمعاصي، فنفع اللّه بهذا الكتاب خلقًا كثيرًا،فالشيخ ابن قيم الجوزية يمتاز أسلوبه بالبساطة والوضوح مع الرصانة والمتانة في الوقت نفسه.

### كتاب (العبودية):

سبب تأليف ابن تيمية لهذا الكتاب: أنه سئل ذات مرة عن قوله تعالى: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم). فما العبادة؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا؟ وما حقيقة العبودية؟ وهل هي أعلى المقامات في الدنيا والآخرة أم فوقها شيء من المقامات؟ فأخذ على عاتقه توضيح هذه الأسئلة من خلال كتابه.

### كتاب (صفة صلاة النبي ﷺ ) للألباني:

ولما كنت لم أقف على كتاب جامع في هذا الموضوع؛ فقد رأيت من الواجب عليَّ أن أضع لإخواني المسلمين ممن هَمُّهُم الاقتداء في عبادتهم بهدي نبيهم ﷺ كتاباً مستوعباً - ما أمكن - لجميع ما يتعلق بصفة صلاة النبيﷺمن التكبير إلى التسليم؛ بحيث يُسَهِّل على من وقف عليه من المحبين للنبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبّاً صادقاً القيام بتحقيق أمره في صلوا كما رأيتموني أصلي"، ولهذا فإني شَمَّرت عن ساعد الجدّ، وتتبعت الأحاديث المتعلقة بما إليه قصدت من مختلف كتب الحديث؛ فكان من ذلك هذا الكتاب الذي بين يديك، وقد اشترطت على نفسي ألا أورد فيه من الأحاديث النبوية إلا ما ثبت سنده؛ حسبما تقتضيه قواعد الحديث الشريف وأصولُه، وضربت صفحاً عن كل ما تفرد به مجهول، أو ضعيف؛ سواء كان في الهيئات، أو الأذكار، أوالفضائل وغيرها؛ لأنني أعتقد أن فيما ثبت من الحديث غُنيةً عن الضعيف منه؛ لأنه لا يفيد - بلا خلاف - إلا الظن؛ والظن المرجوح، وهو كما قال تعالى:﴿ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴾ النجم: ٢٨ . وقال ﷺ : (إياكم والظنَّ ! فإن الظنَّأكذبُ) الحديث.

### (صفة صلاة النبي ﷺ ) للألباني:

ألَّف الإمام الشافعي الكتاب بناءً على طلب من الإمام عبدالرحمن بن مهدي المُحدِّث الشهير؛ حيث طلب منه: "أن يضعَ كتابًا فيه معاني القرآن، ويَجمع مقبولَ الأخبار فيه، وحُجَّة الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسُّنة".

كتاب الإنصاف لابن الأنباري

قال: فإن جماعة من الفقهاء المتأدبين والأدباءالمتفقهين المشتغلين علي سألوني أن ألخص لهم كتابًا لطيفاً يشتمل على مشاهيرالمسائل الخلافية بين نحويي البصرة والكوفة على ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعيوأبي حنيفة؛ ليكون أول كتاب صنف في علم العربية على هذا الترتيب، وألف على هذاالأسلوب؛ لأنه لم يصنف عليه أحد من السلف، ولا ألف عليه أحد من الخلف.

### كتاب (معاني القرآن) للفراء:

يروى في سبب إملاء هذا الكتاب أن عمر بن بكير كان من أصحابه-الفراء- وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن، فلا يحضرني فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً وتجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه فعلت! فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن، وجعل لهميومًا!

### كتاب (الاشتقاق) لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد:

وكان الذي حدثنا على إنشاء هذا الكتاب، أن قوماً ممن يطعن على اللسان العربي، وينسب أهله إلى التسمية بما لا أصل له في لغتهم، وإلى إدعاء ما لميقع عليه اصطلاح من أوليتهم، وعدوا أسماء جهلوا اشتقاقها ولم ينقذ علمهم في الفحص عنها، فعارضوا بالإنكار واحتجوا بما ذكره الخليل بزعمهم: أنه سألَ أبا الدُّقيش: ما الدُّقيش؟ فقال: لا أدري إنما هي أسماء نسمعها، ولا نعرفُ معانيهَا وهذا غلط على الخليل، وإدعاء على أبي الدقيش، وكيف يَغبَى على أبي عبد الرحمن الخليل بنأحمد نضر اللّه وجهه مثل هذا، وقد سمع العرب سمَّت: دَقْشاً ودُقَيشًا ودَنقْشَا، فجاءوا به مكبَّراً ومحقراً، ومعدولاً من بنات الثلاثة إلى بنات الأربعة بالنون الزائدة. والدَّقش معروف، وسنذكره في جملة الأسماء التي عَمُوا عن معرفتها، ونُفردلها باباً، وباللّه العصمة من الزَّيغ، والتوفيق للصواب.

### كتاب (الإغراب في جدل الإعراب لابن الأنباري):

قال في مقدمته: فإن جماعة من الأصحاب اقتضوني بعد تلخيص كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) تلخيص كتاب في جدل الإعراب معرّى عن الإسهاب، مجرّد عن الإطناب؛ ليكون أول ما صنف لهذه الصناعة في قوانين الجدلوالآداب، ليسلكوا به عند المجادلة والمحاولة والمناظرة سبيل الحق والصواب، ويتأدبوابه عند المحاورة والمذاكرة عن المناكرة والمضاجرة في الخطاب.

فأجبتهم على وفق طلبيتهم طلباً للثواب، وفصّلته اثني عشر فصلاً على غاية من الاختصار تقريباً على الطلاب. فاللّه تعالى ينفع به إنه كريم وهاب.

### كتاب (معرفة السنن والآثار):

قال مؤلف الكتاب عن سبب تأليفة: ثم إني رأيت المتفقهة من أصحابنا يأخذهم الملال من طول الكتاب، فخرجت ما احتج به الشافعي من الأحاديث بأسانيده في الأصول والفروع مع ما رواه مستأنسًا به غير معتمد عليه أو حكاه لغيره مجيباً عنه على ترتيب المختصر، ونقلت ما وجدت من كلامه على الأخبار بالجرح والتعديل والتصحيح والتعليل. وأضفت إلى بعض ما أجمله من ذلك من كلام غيره ما فسره، وإلى بعضما رواه من رواية غيره ما قواه ليستعين باللّه تعالى من تفقه بفقه الشافعي رحمه اللهفي كتبه هذا الكتاب وحفظه وسماعه، ليكون على وثيقة مما يجب الاعتماد عليه من الأخباروعلى بصيرة مما يجب الوقوف عليه من الآثار، ويعلم أن صاحبنا رحمنا اللّه وإياه، لميصدر باباً برواية مجهولة، ولم يبن حكماً على حديث معلول، وقد يورده في الباب على رسمأهل الحديث بإيراد ما عندهم من الأسانيد. واعتماده على الحديث الثابت أو غيره منالحجج، وقد يثق ببعض من هو مختلف في عدالته على ما يؤدي إليه اجتهاده كما يفعله غيره. ثم لم يدع لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سنة بلغته، وثبتت عنده حتى قلدها، وما خفي عليه ثبوته علق قوله به: وما عسى لم يبلغه أوصى من بلغه باتباعه، وترك خلافه، وذلك بين في كتبه وفيما ذكر عنه من أقاويله.

### كتاب (دفع إيهام الاضطراب) للشيخ محمدالأمين الشنقيطي رحمه اللّه:

قال الشيخ عطية محمد سالم في كتابه «مع الأخ أحمد جمال العتاب قبل الجواب: وحقيقة هذا الكتاب وسبب تأليفه يخصني في الدرجة الأولى، وأستطيع أن أقول: إنما وضع بسببي إن لم يكن من أجلي، وذلك حينما كنت أقرأ على الشيخ رحمه اللّه تفسير سورة البقرة، وكان رحمه اللّه مخصصاً لي حصة يومياً ما بين المغرب والعشاء. ومكثت فيها مدة سنتين في تلك الحصة، وكان رحمه اللّه يأتي بما فتح اللّه عليه من دقائق التفسير ولطائفه. على أن تفسير هذه السورة يعد أساساً لتفسير القرآن كله. فكان رحمه اللّه يمعن في بيان شتى علوم القرآن من بلاغة ولغة وأصول وأحكام، وغير ذلك وخاصة بيان أوجه الجمع بين بعض الآيات التي ظاهرهاالتعارض، وبيان أقوال السلف في ذلك ابتداء من قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ البقرة: ٢ مع قوله تعالى:﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ ﴾البقرة: ١٨٥ ومثل قوله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴾ الصافات: ٢٤ مع قوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴾ الرحمن: ٣٩ ومثل ذلك كثير مما هو مسطور فيالكتاب. فسألته: وهل يوجد تأليف يوقف طالب العلم على هذه الأوجه للجمع بين تلك الآيات؟ فأجاب: إنه لم يطلع على مثله.

ورغبته في وضع رسالة في ذلك خدمة لكتاب اللّه وتسهيلاً لطلاب العلم، لأنها توهم كما يوجد في الأحاديث ما يوهم، ويحتاج إلى بيان أوجه الجمع. فشرع رحمه اللّه في تأليفه في أوجز وقت، وذلك في عطلة المذاكرة قبل الاختبار حوالي العشرين يوماً، وأعطانيه أبيضه للطبع فكانت لي دراسة خاصة لجميع نقاطه، وكنت أعرف الناس بموضوعه، وقد أشار رحمه اللّه في مقدمته بأوضح عبارة حيث قال ما نصه:

أما بعد، فإن مقيد هذه الحروف عفا اللّه عنه أراد أن يبين في هذه الرسالة ما تيسر من أوجه الجمع بين الآيات التي يظن بها التعارض في القرآن العظيم. فترى أنه عفا اللّه عنه ورحمه أراد بيان أوجه الجمع ودفع الظن عن كتاب اللّه، فكان رحمه اللّه عالماً ولم يكُ متوهماً وحاشاه رحمه اللّه من مثل ذلك مع ما أعطاه اللّه من فهم في كتاب اللّه.

